المجلد التاسع

خليل مطران

شاعر القرن العشرين

للدكتور اسماعيل احمد الرفوم
عضو اكاديمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

شخصية مطران

(توطئة) في الانسان وراء المظاهر التي تلابسه اصل ثابت هو الشخصية البشرية . وقد تتغير المظاهر التي تلابس الانسان في الحياة . ولكن الشخصية رغم ذلك ثابتة لا تتغير مثلها في ذلك مثل مثلث مختلف الاضلاع، اذا نظرت اليه في مختلف اوضاعه ، فانك تراه يتغير شكله في الشكل ، وهو بعد ذلك مع النظر الدقيق لم تتغير عناصره في شيء

والشخصية البشرية مجموعة من الصفات الخَلقية Ethnis (التشريحية والجسدية) والخُلقية Ethic (النفسية والعقلية) تداخلت، فكان منها ذلك الاصل الثابت في طبيعة الانسان الذي يتظاهر من وراء مجموع سلوكه في كلتا حياته : الفردية والاجتماعية . والنزول الى الاصل الثابت من سلوك الانسان في الواقع كشف عن الخطوط الاساسية التي تتداخل في بناء نسيج الشخصية

وشخصية خليل مطران في الواقع لا تخرج دراستها عن هذه القاعدة ولا تشذ عنها . فحركاته وسلوكه في حياته التي انعكست على مدى ثلاثة اجيال من الزمان ، تفصح عن الاصل الثابت من ذاتيته ، ذلك الاصل الذي تقوّم به في سلوكه في حياته، والذي اتخذ امتداداً منتظماً في الزمان

ولفهم شخصية الخليل على حقيقتها من كلتا الناحيتين : الخَلقية والخُلقية يجدر بنا ان نظر في نشأة الرجل . ومعرفة هذا امرٌ تكتنفهُ المشاق لتغلغل اصول شخصيته في دور الطفولة حيث لم يكن الوعي قد تيقظ . ومع ذلك في وسعنا ان نضع موضع النظر هذه الحقيقة: وهي ان الخليل أفصح في طفولته عن مزاج عصبي أصيل وطبيعة ذات حيوية مستفيضة . ولا شك ان هذا المزاج وتلك الطبيعة ألجمها في نشاطهما ، نشاط الغدة النخامية ، التي كانت سبباً في ان يراجع الخليل اعماله بنفسه self-control . ولا شك ايضاً ان ظاهرة المراجعة لم تبد واضحة الا في سن متأخرة من سني الشباب ، آية ذلك ما كانت تنساق اليه شخصية الخليل الأولى من مغامرات ، الاصل

فيها شدة الحيوية وزخور الشاعر واتقادها . من ذلك ما كان من شأنه حين حاول مجاراة كبار أفراد أسرته في السباق على متن الحياد فكان ان نلت الزمام من يده وتردى من متن جواده على الأرض ، فتكسرت نتيجة لسقوطه بعض ضلوعه وعظمة أرنبة أنفه . وهو لا يزال يحمل آثار هذه السقطة في أنفه الى اليوم

والواقع ان هذه الحيوية الفائضة ، لانها لم تكن خاضعة لأية مراجعة من النفس ، كانت تنقلب الى بعض الطيش . وكان يساعد الخليل على ذلك ما كان يلقاه في جوالاسرة من الحرية وعدم المراجعة — فلما شبّ الخليل وكثرت عثراته أخذ يخلص مع الزمن والتكرار من عثراته بفكرة مراجعة ذاته — ولا شك انهُ عاود نفسه وراجعها كثيراً فيما كان يلزم عليه خصوصاً بعد ان تشبعت عقليتهُ اللاواعية بهذه الفكرة التي أوحتها اليه عثراتهُ — ولا شك في ان نقطة التحول في سلوكه كانت سقوطه من متن جواده وانكسار عظمة أرنبة أنفه . فما كان يحمله من التشويه في أنفه المستوقف للنظر كان أكبر موح له على الحذر . ولا شك ايضاً في أن هذا الحذر لم يكن ليتحقق معهُ ، الاّ بأن يسندهُ عامل داخلي . ويظهر ان الخليل وجد في ذلك الجرح في نشاط غدته النخامية ما يسند محاولتهُ هذه ، فكان من ذلك ان نشأت فيه مع الزمن قوة على ضبط النفس ومراجعتها . وهذا التحول وان كان طبيعيًّا فانهُ لم يكن وليد يوم وليلة . وانما كان نتيجة محاولات من الخليل لضبط نفسه يسندها نشاط العضو الضابط للشخصية . فكان من ذلك مع الزمن تلك القوة على ضبط النفس ومراجعتها

فنحن نرى أول ما نرى في شخصية الخليل قوة العقل وضبط النفس . ولهذا تجد عقل الخليل مما فأصبح أقوى من قلبه . ومن هنا ايضاً كان تفكيره أزخر من عاطفته . ولا شك ان هذا هو الاصل فيما يلاحظ على شعره من تداخل العقل في شبكة الانفعالات والعمل على خلخلتها وضبطها في نسب موزونة تنزل عند حكم الفكر . فانت ترى قصة غرام مطران كما سجلها في حكاية عاشقين من الديوان رغم ما تتطلب مواقفها من ارسال للشاعر حادة مترعة بالوجدان فائضة وعلى وجه خاص في المواقف التي أملت عليه قصائد « تذكار » و« مثال في مرآة » و« الى حبيب بيت » ، عناية بالتصوير[1] وهذه العناية بالتصوير تبين ان نفسه لم تكن ممتلئة بالموقف ، والاّ لنسي في غمرة المشاعر ريشة المصور ، وأطلق أحاسيسه نبضات حارة من القلب

كذلك نرى هذه الصفة في اعتكاف الخليل بضاحية « عين شمس » بعد ان فقد زوجته في المضاربات المالية

(١) التصوير عناية بالنسب والالوان والظلال والانوار وجعلها متسقة ، وهي تحتاج الى عنصر الفكر الذي يضبطها . ولا شك ان الاسترسال أساس في فن التصوير ، وهو لا يترك المجال لاي شعور آخر . ومن هنا تؤخذ عناية الخليل بالتصوير في الحالات التي تثير دليلا على تداخل عنصر الفكر من جهة وضبط الشاعر من جهة أخرى حتى لا تطغى وتفسد تأثير الريشة عملها التصويري

التي كان كلفاً بها ، وتفكيره في الانتحار بفقد الروابط التي تربطه بالحياة الاجتماعية في هذا العصر المالي، ثم في تناوله فكرة الانتحار بالنظر، وخلوصه من ذلك بأنها تداه لايحقق غرضاً الا الهروب من مواجهة الحياة، ثم بعد ذلك نجد في عملية التعويض التي قام بها مفرجاً عن نفسه، ولظله قصيدة « الاسد الباكي » ؛ بعض ما يبين هذه الطبيعة الغالبة على شخصيته

على ان الخليل وان خلص بحكم المراجعة الذاتية بقدرة على ضبط النفس ، فان طبيعته الاصلية كرجل عصبي المزاج مرهف الاحساس سريع الانفعال ، كانت تهيء اعصابه للتأثر بالانفعالات الدقيقة للوهلة الأولى . وهو بعد ذلك يضبطها ويحللها ويصفيها في لهب دقيقة ويزنها عند حكم العقل بادخال عنصر الفكر فيها

— ١ —

كل منا يخرج الى الحياة بمجموعة من الميول الفطرية والغرائز التي تنشط من عقالها وتطلق شحناتها الكامنة تحت تأثير البواعث stimuli المختلفة . وتجاربنا الاولى وأعمالنا في الواقع تلوّن ميولنا وغرائزنا الطبيعية بلون خاص، تدخل في نسيج شخصيتنا الذي يتكوّن مع الزمن. ولما كانت الميول والغرائز التي نخرج بها الى الحياة تقريباً واحدة جميعاً في تأثيرها في دور الطفولة الأول ولا تصل الى دائرة الوعي ، فان تجاربنا وأعمالنا في تلوينها لها تعمل على نشأة الواعية من أعماق اللاواعية ، كجزائر منفصلة تتحد تدريجيًّا وتكوّن وحدة من الوعي المستمر . ونشأة الوعي المستمر برجوعها الى تجاربنا التي نخلص بها من معاملتنا الخارجية مع الحياة ، تتقوّم بالمؤثرات التي تكتنفنا ، ومن هنا كان ما للبيئة من شأن وتأثير في انشاء الواعية وبناء الشخصية

ومما هو جدير بالنظر ملاحظة المؤثرات الخارجية التي تعمل كعوامل مساعدة لاطلاق الشحنات الكامنة في غرائزنا ، والموازنة التي خلص بها الخليل في حياته ، تثبت ان المؤثرات الخارجية في تأثيرها في غرائزه كانت متوازنة ، عملت على خلق حلة المراجعة والمقاومة في طبيعته . ولا شك ايضاً ان الخليل نشأ خلواً من التعقيدات complexes النفسية ، لان اطلاق الحرية لميوله الفطرية وغرائزه وعدم الضغط عليها ، اتاح لها ان تنمو نموًّا متوازناً طبيعيًّا . ومن هنا لا تحس في شخصية الخليل بالتقبض على الذات والتفرد، الشيء الذي يثبت انهُ لم يعان أزمات نفسية في طفولته . وسلوك الخليل يثبت ان انطلاق الطاقة المخزونة في أعصابه ، لا يسيل في مجرى ضيق يُحتشدُ فيها . ومن هنا يمكن القول بان انطلاق طاقة الرجل تأخذ صورة فيض وسيل في مجرى متسع في غير جلبة او ضجيج ، مثله في ذلك مثل انطلاق السيل في مجرى نهر متسع ، يجري فيه بهدوء حتى يصب في النهر . وهذا ما يبدو في صبه انفعالاته الشعرية في تفاعيل رحبة متسعة . ومن هنا لا تبدو الذبذبات السريعة والحركات المتلاحقة والاصوات المتتالية الرنين

في توقيع شعره على اوتار نفسه ، لان هذه الاوتار غير مشدودة كل الشد ، وانما هي مربوطة عند الحد الذي يرسل القبذبات هادئة طويلة النغم خافتة النبرات

والواقع انهُ اذا كان الشعر وما يلبسه من الصور مظهراً لشخصية الشاعر ، فان الايقاع الذي في شعر الخليل مظهر للايقاع الذي تستهويه (تستهوي) لهُ اعصابه من الايقاع الذي في الطبيعة. آية ذلك ان الخليل شاعر تظهر في شعره قوة التوقيع . غير ان اتساع افق النفس ورحابة مدى الانفعالات ، يجعلان هذا التوقيع يظهر في صور خاصة وضروب من التفاعيل يختص بها في شعره. ودراسة تفاعيل شعر الخليل تبين ان جلها يجيء من ابحر محدودة وتفاعيل خاصة . المطرد منها في شعره ، تلك الابحر المعروفة برحابتها واتساعها ، كالمديد والطويل والوافر والكامل فهي اكثر اتساعاً للفكرة . وعنصر الفكرة غالبٌ على شعر الخليل . هذا من جهة ومن جهة اخرى لان نفسية الخليل اكثر استئناسة واستهواء لهذه الابحر الرحبة الواسعة . والواقع ان لهذه الاستئناسة دلالتها على روح الرجل ، فان في تلك الابحر من المدات الطويلة التي تلج النفس وتبرز منها ، ولوج الامواج المديدة للشاطىء وبروزها من البحر ، بعض ما في شخصية الخليل

نحن نعرف ان جميع آثار الشاعر تستمد عادة من سوائق vehicle وخصائص . هذه السوائق في الشاعر غيرها في الناثر وهذه حقيقة تبدو واضحة للنظر من مراجعة آثار شخص مثل الخليل له آثار في كل من بابي النظم والنثر من الكلام. والواقع ان كل انسان منا له مدى ضيق يدور فيه بطاقته للوصول الى غرضه ، والترابط بين طاقة الشاعر والتفاعيل التي يصب فيها مشاعره واحساسهُ وأفكاره ، تبين نوع استهوائه ، الشيء الذي يشير الى طبيعته. هذا ويجب ألاَّ ننسى ما للغرض (او الموضوع) من الاثر في تلوين المدى والطاقة بلون خاص ، فشعر الرثاء يستوجب من أبحر الشعر الوافر او البسيط وما يقاربها ، وان كان بعد ذلك تقطيع البحر الذي ينظم فيه الشاعر هو الذي يدل على طبيعته . ثم يجب ألاَّ ننسى ان لغة اثراً في تكييف آثار الشاعر ، كذلك لضروب التفاعيل المستخدمة في شعر تلك اللغة نفس ذلك الاثر ، وهذا ما نعن اليهِ المتقدمون من نقاد الافرنج [1] فلاحظوه في دراستهم النقدية . هذا ونحن نعرف من دراسة بحور الشعر العربي دراسة يراعى فيها مقتضى الحال من النسبة — ان بحر الرجز لا يصلح للرثاء ، لأن ما فيهِ من الامتدادات السريعة لا يستقيم مع ما في فكرة الرثاء ومقامه من التوجع والتريث ومن هنا نتبين ان للموضوعات والاغراض التي يقال فيها الشعر ان كانت تملي الى حد كبير النغمة التي يقال فيها الشعر ، ولكن التقطيع الخاص لضرب البحر يدل بعد ذلك على ذاتية خاصة للشاعر

(١) Mathew Arnold, Maurice de Genrin, in Fraxiser's Magazine, January 1863

والواقع اننا لمسنا في نظم مطران غلبة البحر المديد وما يتفرع عنهُ من الأعاريض والأضرب ، وميلاً للتخميس يظهر في اكثر من قصيدة طويلة من منظومات الديوان. فان الاصل في ذلك ليس محاولة افراغ الفكرة المتصلة المتسلسلة في الخاطر فيما يتسع لها من الأبحر فحسب ، وانما الاصل فيه طاقة الشاعر التي تنساب في الأبحر الطويلة المتسعة ، مما يبين ان اعصابهُ ترسل انفعالاتها (التوقيعية) طويلة الذبذبة مديدة الحركة

وهذه الحقيقة ان خلصت بنا من دراسة بحر شعر الخليل ، فانك يمكنك ان تصل الى نفس النتيجة من دراسة موسيقية شعره . فلشعر مطران موسيقى هادئة خافتة النبرات ، ولعلّ هذا الهدوء وخفوت النبرة ، هو السبب في انكار الذوق المصري العام لموسيقية الرجل في شعره . فقد حدّثنا الاديب الشاعر عبد اللطيف النشار ان الذوق المصري لا يؤخذ بموسيقية شعر الخليل ، لأن الذوق المصري لا يستهويه (او يستميله) غير النبرات الظاهرة والموسيقى الصاخبة والحركة والجلجلة في التوقيع . وهذا صحيح ، وأظهر ما تكون الروح المصرية في الشعر في موسيقية شعر البها زهير ثم موسيقية شاعر كمثال حلمي او صالح جودت من المعاصرين

على انهُ بعد ذلك لنا عودة الى الموضوع في شيء من الاستفاضة المدعمة بالشواهد والاستقراءات حين نعمد الى الكلام عن فن مطران وصناعته الشعرية

***

مثل هذه الطبيعة الرحيبة الجنبات بعيدة عن التعصب ، لأن الأصل في التعصب ، أنطلاق الشحنات المفرغة من الاعصاب في مجرى ضيق . ومن هنا يمكننا ان نعرف الاصل في سماحة نفس الخليل واتساع افق شعوره ورحابة مدى ذهنه . فالرجل حرُّ الفكر ، الى اقصى ما تعرفهُ حرية الفكر من حدود . وذاتيته لا تعرف معنى التعصب لمذهبية دينية كانت ام جنسية ، فكرية كانت ام ادبية . فأنت ترى ان الرجل وان كان من المجددين وقف لنفسه ، فان الجديد لم يملك على نفسه المسالك . ومن هنا تجده في تجديده ، يعمل للجديد بلا ثورة . يلتزم القديم حين يجد في هذا الالتزام تحقيقاً لغرض فني ، ويتخلص من القديم حين يرى القديم لا يتفق والغرض الفني الذي يرجوه . وهذا يفسر لنا قوله :

[عدت الى الشعر وقد نضج الفكر ، واستقلت لي طريقة في كيف ينبغي ان يكون الشعر . فشرعت أنظمه لنزعة نفسي حيث أتخيل ، او لتربة قوي عند وقوع الحوادث الجلى . متأسياً بعرب الجاهلية في مجاراة الطبيعي من هواء ومراعاة الوجدان على مشاهداته موافقاً زمني فيما يقتضيه من الجرأة على الالفاظ والتراكيب لا أتحاشى استخدامها أحياناً عن غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الاساليب ، ذلك مع الاحتفاظ جهدي بأصول اللغة وعدم التفريط في شيء منها .] (١)

كذلك تجد ان الرجل وان كان من الروم الكاثوليك ، وصاحب عقيدة خالصة في الدين ،

(١) ديوان الخليل — بيان موجز في تقدمة الديوان

فان الدين لم يملك عليه شغاف قلبه ، ومن هنا تجده صاحب مروءة في عقيدته الدينية ، وصاحب فكرة في الاصلاح الديني بلا ثورة . ويمكن استقراء فكرات مطران في الدين من قصيدته « الطفل الطاهر » من الديوان . وهذه المروءة وهذه الرغبة في الاصلاح تدرجان في الحرية الفردية ضد تسلط رجال الكهنوت

والقصيدة كلها انتصار لحرية الشخص في الحياة: في العمل وفي الاعتقاد ، وهو يرى عكس ما يراه رجال الكهنوت من الهوَّة السحيقة بين مذاهب ديانة متحداة مثل المسيحية، فجميع المذاهب عنده تلتقي عند اصل واحد ، ثم تتفرق لصالح الناس لا لضرهم

— ٢ —

الناس أحد اثنين، رجل ذي طبيعة فعالة (مؤثرة) active او رجل ذي طبيعة منفعلة (متأثرة) passive، والطراز الاول من الناس يحملون في نفوسهم صورة الذكر animus بكس الطراز الآخر فانهم يحملون صورة الانثى anima في روحهم . والطراز (او الطابع) المذكر masculine type يتميز عادة بالقدرة على مراجعة النفس وحب التسلط والقوة ، وطلب الجاه والمقام . ومعظم القائمين بالأعمال من هذا الطراز . اما الطابع المؤنث feminine type من الرجال فيتميزون بقوة الاحساس وزخور المشاعر والجري وراء المثاليات والخياليات. ولا شك ان مطران مزيج من هذين الطابعين ، فله من الطابع الاول القدرة على مراجعة النفس ، وطلب الجاه ، وحب المغامرة . وهذا ما يظهر في الجانب العملي من حياته . كما ان له من الطابع المؤنث الاحساس الدقيق وزخور الشعور والتعلق بالمثل العليا والجري في عوالم الخيال والتحليق في سماوات عوالم الايهام Fantasies على ان خروج الخليل بهذا المزيج في شخصيته ، جعله يلف مشاعره وأحاسيسه في صور. ومن هنا جاء الاصل التصويري في طبيعة الرجل[1]

ولف الخليل مشاعره وأحاسيسه في صور يبدو من استقراء دقيق لشعره ، كحكاية عاشقين، وهي تسجل قصة حب الشاعر، طغى على مواقفها الشعرية التصوير والوصف ، والواقع ان مطران وصَّاف مصوِّر من الطبقة الاولى بين شعراء العربية لا يدانيه في هذا غير ابن الرومي. وبراعة الخليل في الوصف والتصوير مشهود له بها. والاصل فيها طبيعة المراجعة التي تأصلت في نفسه. والتي تدفعه الى العناية بتفاصيل الامور وجزئياتها ، ومن هنا اعادة الكرة تلو الكرة على الشيء الواحد حتى ينتزع منه مجموع اشكاله وينزل بها الى مقوماته من الجزئيات والتفاصيل ولعلَّ هذه الناحية التصويرية والوصفية هي التي اعانت الخليل على ان يكون شاعراً قصاصًا ، لان القصص يتطلب

(١) ج Mechanism of Thought,.. and Conduct في B. Hollander

الوصف والتصوير ، وهما صفتان غالبتان على شخصية الخليل الفنية

والخليل بعد ذلك كله صاحب شخصية تغلبها صفة التشاؤم . فهو لا يرى من العالم غير جانبه المظلم ، المتخم بالفناء ، والشقاء عنده أغلب على الحياة من السعادة . ونبعث هذا اللون التشاؤمي عند الخليل يخفف من تشاؤمه عنده ، غلبة العقل ، الذي يدخل عنصر الفكرة ، فيتحول تشاؤمه الى رجاء في المستقبل . وهذا اللون من التشاؤم ، هو أحب الالوان في النوائح ، ويغلب على ظن الكثيرين انه من باب النزعة التفاؤلية من حيث يمكن منها فكرة الرجاء في المستقبل . ولكن هذا الظن خاطىء . لان الحكم على نزعة انسان بأنها ذات لون تشاؤمي او تفاؤلي هو نتيجة في الواقع لملاحظة غلبة الاضواء المشرقة على آثاره او الظلال القاتمة عليها ؛ لان الطبيعة الداخلية تظاهر لنا من آثار الرجل ، في اللون الذي تكسه عليها . فالطبيعة المتفائلة تأخذ ناحية الالوان المشرقة من الاشياء والطبيعة المتشائمة على الضد تستهويها الظلال القاتمة . ويبدو من استقراء شعر مطران . ان الرجل تستهويه الظلال القاتمة من الاشياء فليست قصة « الجنين الشهيد » وقصيدة «فاجعة في هزل» وقصتا « شهيد المروءة وشهيدة الغرام »و« وفاء »وقصتا «العقاب» و« فجان قهوة» ثم قصة «فتاة الجبل الاسود » سوى آثار يغلب عليها جانب الفاجعة (المأساة) — tragedy — ثم عندك بروز الخليل في الشعر القصصي الذي يغلب عليه طعم المأساة ، وفي شعر الرثاء ، دليل على ان الرجل يفضل بعناصر الفواجع في الاشياء اكثر من انصاله بعناصر الفكاهة او الملهاة منها ، حتى ان عنصر الهزل استحال بين يديه في قصيدة « فاجعة في هزل » الى مأساة فاجعة

***

ان صح ان الخليل يغلب على شخصيته اللون التشاؤمي فالاكتئاب قرين هذا اللون . والواقع ان مطران من الطراز المكتئب من الناس . ولكن الاكتئاب بالانقباض وتفرد . وسر هذا ان الرجل يحاول ان ينسى كآبته في الناس . ومن هنا جاء تعلقه الشديد بالعالم الخارجي . وقد لاحظ احد النقاد «ان مطران لم يصور نفسه في شعره بل صور الناس الذين يحيطون به»[1] . وهذا صحيح وخطأ . فحقا ان مطران لم يصور نفسه قدر ما عني بتصوير الناس . ولكنه في الآن نفسه كان يصور نفسه في الناس . لان حياته لم تكن لتستقيم الا في خروجه الى العالم الخارجي من ذاته ، ونسيان نفسه في رحاب العالم الخارجي . وتلك خلة لاصحاب الطبائع التي تلونها الكآبة بلون ، والتعلق بالحياة بلون . لان المكتئبين عادة من الناس الذين ينزلون ويغرقون في طيات أنفسهم . ولكن اذا كان أحدهم من الطراز « الفعال المتفعل » فان هذا الاكتئاب يقترن

(١) دوكس زايد المرزبي خليل مطران وشعره — الهلال الجديدة ، م ٦ ج ٥ (مايو ١٩٣٧) ص ٥٢

بالتعلق بالحياة ، ومن عنا الهرب من النفس الى الخارج . وعادة هذا الطراز ان ينجح في التصوير والتحليل ، فالطراز المنكب المنعزل ينجح في تصوير خلجات النفس وتحليلها الى ابعد الحدود كما هو الحال في شاعر عبقري كعبد الرحمن شكري . والطراز المكتئب المنسحب عن الناس ينجح في تصوير الحياة الخارجية وتصوير الناس كما هو الحال مع شخصية مطران

وهرب مطران من نفسه الى الناس ومحاولته ان ينسى نفسه بينهم ، هو الاصل فيما يبدو فيه من أنس المعشر ، وحب الاجتماع . والحق ان الرجل مشهود له بأنه من خير الرجال الذين عرفتهم مجالس مصر . فرحابة صدر الرجل تجعله من كل مجلس ومن جميع الناس في موضع القبول والترحيب . فضلاً عن ان اتساع افق شعوره بجعله يتغاضى عن اخطاء أصحابه ومعارفه ، ويحاول ان يجد لهم العذر في سلوكهم المخطىء . وعلى ذلك كان الخليل صديق الجميع ، حتى ان مجلة سركيس كتبت عنهُ تقول : (وانا اقرر به أن كل انسان في مصر يعرفه من عهد الخديوي فنازلاً) ولا شك أيضاً ان ثقافة مطران المتعددة النواحي ، وحديثه المتنوع الزاخر ، وبلاغته في الكلام اثر أكبر في نجاحه كرجل من رجال المجالس . وانا وان كنت لاقيت الخليل مراراً معدودة خلال النصف الثاني من عام ١٩٣٩ ، فان اول ما استرعى نظري منهُ امران : الاول أنهُ يملك على الجالسين شغاف قلوبهم بحديثه . وثانياً ان حديثه ليس من مبتذل القول ، وانما تنشى في تضاعيفه حكمة ونظرة صائبة وتعمق في تناول الموضوع وتناوله من مختلف نواحيه واجزائه . وأذكر اننا تقابلنا يوماً صيف عام ١٩٣٩ في الاسكندرية وكان الوقت مساء وجاء الدكتور بشر فارس ، وتجاذبنا اطراف الحديث وانتهى بنا المطاف عند بحث المروءة « من كتاب جديد للدكتور بشر » فكان الخليل يعرض الموضوع عرضاً شاملاً حتى اني تعجبت من سعة افقه في الموضوع تعجب من غير الاخصائيين في شؤون اللغة ، وقلت وفي نفسي فكرة عن الخليل ، لا أظن انّ أديباً من ادباء العربية المعاصرين من الذين عرفتهم شخصيًّا تركها في نفسي . والواقع ان الخليل نسيج وحده بين أدباء العربية المعاصرين

***

قلنا انّ مطران من الطراز الاجتماعي — sociable — ، وهذا الطراز من الناس عادة يكون متحرراً في سلوكه رقة ، وفي حديثه لباقة سريع الخاطر ، قوي الحافظة (او الذاكرة). لهُ مقدرة في التنقل من حديث الى آخر بلباقة ، يتولى ادارة المجالس وتحريك الكلام فيها من موضوع لآخر ، ويحوّل الحديث ويخرجهُ عن دائرته اذا ما لمس انهُ يمسُّ أحد الحاضرين في المجلس . وهذا الطراز من الناس يعرف « برجال الصالونات » في اوربا ، غير ان مطران وان كان منهم فهو في الواقع اكثر من « رجل صالون » بمواهبه . غير ان حياة المجالس

والروح» الصالونية» جعلت لطفه يغلب في الكثير من الاحوال إلى حد زرع من الزلق . ولعل هذا هو نقطة الضعف في شخصية مطران نفسه . على اننا يمكننا ان نجد في كون مطران غريباً على المجتمع المصري من جهة ، ثم اضطراره ان يحصل معاشه في بلد قام على الزلق من جهة اخرى، أصل هذا الضعف في شخصيته . على ان مطران بعد ذلك يبدو شعره الذي فيه المديح والمراثي على شعور صادق ، تلونه صلات الرجل بالناس . وما يظهر من التكلف على بعض المواضع من شعره هو بعض جناية المجتمع المصري عليه من جهة واسترساله مع لطفه وطيبته الاجتماعية من جهة اخرى . على ان هذا قليل في ديوان مطران وهو أقل في القصائد التي نظمها بعد ان اخرج ديوانه ، وهذه الفلة تعود الى مقدرة مطران على التخلص من المواقف المتكلفة موضوعاً الى العنصر الشعري الذي يفعل به ، وهذا يثبت انهُ من الطراز الباطني النظر introverts

آية ذلك انشغاله بالعناصر الباطنية من الاشياء ، كنفوذه الى العناصر الشعرية من الموضوعات التي تبدو متكلفة من حيث تمثيلها اللابسات . دلالة ذلك انهُ طلب الى مطران ان ينظم قصيدة في حفلة زفاف دعي اليها، فكان ان نفذ من هذه المناسبة الى العنصر الشعري المرتبط بفكرة الاقتران ، فكان من ذلك قصيدة من عيون شعره ، تلك هي قصيدة « الاقتران» وهي من منظومات الديوان

— ٣ —

هنالك من الناس من تعرفهم فتشعر وكأن لك بهم معرفة من قبل . ذلك انهم لا يعرفون عن طريق الحوادث التي يخلقونها ، انما هم يعرفون عن طريق الجو الذي يشعرونهُ حولهم ، وهذا الجو يفعل فعله في النفوس فعل مجال مغناطيسي في برادة الحديد . ولا شك ان خليل مطران واحد من هؤلاء . اول ما تطالعك منهُ مهابة تملأ ما حوله من الأجواء . ويكون في المجلس ، فلا تحس بوجود غيره ، يملأ على النفس شغافها وعلى الالسنة مشاعره

تراه فترى من النظرة الاولى امامك صاحب «جسم ضاحم نحيل» ووجه واضح القسمات ، جبهة عريضة وحاجبان منفرجان وعينان فيهما هدوء وثورة ، وأنف طويل ضخم لو كان قطعة من المرمر لسهل جعله تمثالاً ، ولو كان قطعة من الماس لثارت من أجل الحصول عليها حرب كونية ، وذقن مضموز ، يدل على الطموح وشفتان تنطقان وتهدل سفلاهما لتدل على ميل صاحبها للصرامة من جهة وعدم الاكتراث من جهة اخرى . وصدغان صقيلان يدلان على افراط في تقدير الحب . وصمت غامض يشير الى ان صاحبه خلق للسيادة وغوصها »

هذا هو هيكل الخليل كما خرج من ريشة ناقد فنان[1] من أبناء هذا الزمان

(١) روكس زائد العزيزي — المجلة الجديدة — مايو ١٩٣٧ ص ٣٥

ومطران يتسع — على حد قول هذا الناقد — بشهرة تكاد تكون عالمية . يعرفهُ أدباء العرب ، ويذكره المستشرقون وهم يذكرون ألمع شعراء العربية وأدبائها . وخليل مطران بعد ذلك اسم من ألمع الأسماء في الشرق الأدبي هذا الاسم هو : شاعر القطرين (سوريا ومصر) والواقع ان مطران لم يصل الى هذه الشهرة وذلك المقام الا عن جدارة ، فله من مواهبه ، ثم من ثقافته ما يؤهله عن حق لهذه الشهرة وذلك المقام

اما مواهب خليل مطران فقد مرت اليها الاشارة متفرقة اثناء تحليل الناحيتين الخلقية والخُلقية من شخصيته . واما ثقافته فهنا نقصر الكلام عليها مع عرض لعقليته ومناحيها للنهاية

كان مطران في ثقافته الاولى مثالياً خيالياً . غير أن هذه المثالية والخيالية في ثقافته طرأ عليهما بعد عنصر الواقعية والتحليل ، فكان ان تطورت لذلك ثقافة مطران . والعنصر الاول من ثقافته يظهر في تأثره بالفرد دي موسيه الشاعر الفرنسي . ويظهر أن مطران شغف في شبابه بشاعر الفرنسية وما في شعره من زخور الاحساسات والمشاعر ، ثم كان بعد ان نضجت شخصيته وتغلب عنصر الفكرة على عنصر العاطفة فيه ، أن تلفّت الى الآثار الأدبية التي تمتاز بعنصر الفكرة ، ومن هنا كان شغفه بتكسير وراسين وكورنيل من اعلام الادب الغربي . غير ان الناحية الواقعية والتحليلية التي اخذ بها مطران في الطور الاخير من حياته لم تكن الا نتيجة لنضوجه من جهة ولازدياد خبرته من جهة اخرى . من هنا من الخطأ ان نرى تحليل مطران يعود لفكرة سيكولوجية ، والاصح انهُ يعود الى المدرسة الادبية التحليلية الفرنسية التي تأثر مطران بآدابها

على انهُ بعد ذلك يجب ألاَّ ننسى ان مطران وهو من الطراز الباطني النظر ، يغلب على ثقافته عنصر التأمل والتفكير والنظر . وهذا العنصر يجعل مطران يهضم ويمثل ما يخلص به من مطالعته عن طريق ادارتها في ذهنه والتفكير فيها والتأمل في مغزاها . ولاشك ان الخليل خلص بالكثير من النتائج من المطالعات التي ساعده الحظ عليها . ولاشك أن هذه النتائج اكثر مما يمكن ان يحصل عليها آخرون من المطالعات نفسها لأن قيمة المطالعة لما كانت ليست وقفاً على عدد الصفحات التي تشملها وانما على نوع المطالعة ، أمكن لنا معرفة الذهنية التي كانت تعامل مع الكتب التي يتاح له قراءتها . ولاشك ان مطران وقد تفرغ للادب والشعر على وجه خاص حتى حفظ ديوان اعلام الادب من الفرنسيين ، ثم طالع في العلوم وفلسفتها كثيراً ، خلص بذهنية قياسية سليمة تخضع لمقتضيات التحليل العلمي الذي تسندهُ روح فنية قوية . وآثار هذه الذهنية واضحة في ما كتب الخليل من بحوث في الادب والنقد

على اننا بعد ذلك يجب ان نعترف ان لمطران اطلاعاً كبيراً على التاريخ العام في عمومياته ومما لاريبة فيه ان الخليل وقف في اطلاعه التاريخي عند المجمل فلم ينزل الى التفاصيل والدقائق

وهذا يتضح من دراسة كتابه « مرآة الايام في التاريخ العام » . ثم يجب أن نسبي له من الاطلاع والمعرفة بشؤون الاقتصاد والمال وقد ساعده على الفته فيها اشتغاله بالشؤون التجارية زمناً طويلاً من الزمان

واللغات التي يعرفها هي العربية فالفرنسية فالانكليزية فالتركية فالاسبانية . وقد تعلم الفرنسية والتركية في وطنه الاول : التركي في الدار والفرنسية في المدرسة . اما الانكليزية فساعده الها حب الدراسة بعكس الاسبانية التي دفعه لها داعي العمل ، حين فكر في الارتحال الى شيلي والاستقرار فيها ايام كان بباريس

وأقوى قراءات مطران في الفرنسية والعربية . قرأ في الاولى آثار كورنيل وراسين وموليير وفولتير وفكتور هوغو ولامارتين كما قرأ فيها آثار شيكسبير وميلتون وبيرون وشيلي وسويبورن وبرنسورث وكيتس من أعلام الادب الانكليزي . وعن الفرنسية ترجم الى العربية ماترجم من شكسبير مما سبقت اليه الاشارة . وعنها كذلك ترجم ماترجم عن كورنيل وراسين مما سيجيء بيانه في البحث

أما قراءاته العربية فكثيرة . غير ان أقوى قراءاته العربية لابن الرومي . وهو يرى على ما حدثنا به ، ان ابن الرومي لم يعجب الذوق العربي لانه أخذ من أصوله الاعجابه الوصف والسياقة الدقيقة . والطبيعة العربية لا تتذوق ذلك ، انما تتذوق الاشياء عدداً ، كل قدة منفصلة عما قبلها وعما بعدها ، ولها وحدتها في ذاتها . ومن قراءاته الادبية كذلك مطالعته لشعر البحتري ، وهو عنده — على ما حدثنا — في الطبقة الاولى من شعراء العربية بنسجه الشعري وصناعته . أما المتنبي فيفضل عنده جميع شعراء العرب لانه بكل شعره وفكره يمثل الذي طبع به القرون . وهو معجب من الادب العربي برثاء صاحب لامية العرب لزوجته ، وهو يرى ان مراثاه لم تكن مفهومة كل الفهم للعرب ، وان الجيل الحديث يجب ان يدرسها ويتفهمها من جديد ليكشف عما فيها من العناصر الفنية الرائعة . كذلك يروي الخليل قصائد بوئية التهامي لولده وحكم الشعري والمتنبي ، ويذكر انه كتم الاستشهاد بحكم المتنبي في كلامه والواقع ان مطران ذاكرة يقظة ، لا تخطىء الرواية والنقل . وهو في هذا من القلائل الذين عرفوا في هذا الجيل بقوة الحافظة

ويروي الاستاذ محمود كامل المحامي : ان مطران قرأ هوغو وراسين وكورنيل وموليير وفهمهم وحفظ اشعارهم عن ظهر قلب [1] ولا شك ان هذا ان صح ، فان مطران يكون معجزة زمانه في قوة الحافظة

(١) الجامعة — السنة التاسعة العدد ٣٠٣ ص ٢٣ (٣١ نوفمبر ١٩٣٨) مقال للاستاذ محمود كامل المحامي

ومن الاضافة اللازمة هنا لتمام العلم بجوانب ثقافة مطران الروحية ان نعرض الخصائص الذهنية التي كانت ظاهرة عليه وهذه الخصائص تجري مجرى الاتساق مع شخصيته : خود نظر ألي بواطن الاشياء ، وقدرة على التحليل ، وقياس سليم ، ونظر صادق واحساس دقيق بالاشياء وفهم صائب لها . ثم ذاكرة قوي ولا تتعب ، تذكر ولا تنسى . ولا شك ان لنفس مطالعة مطران أثراً في ذلك — فهو كما حدثنا — حين يعمد للمطالعة . يعالج الموضوع الذي يتناوله في القراءة بصبر وجلد ، يتبين مواضع الجمال في تؤدة فيما يقرأ ، ويترك نفسهُ للكاتب يرتفع به في اجوائه حتى يخلص من الكتاب بروحه التي تتشبع بين سطوره . وبعد ذلك يعود سيداً الكرة على الكتاب بنظر الناقد الفاحص في غير ميل او تحامل حتى يخلص من الكتاب بفكرة ثابتة عنهُ . ومثل هذه المطالعة تثبت في الذهن موضوع القراءة ولا تذهبها ، وتعين على الفهم الصائب ، وتمكن على التحليل والنظر الصادق

خاتمة

عاش الخليل أعزب بلا زواج ومن غير امل . ولم يكن ينتظر من شخص في مكانه غير هذا وله مزاج يلمح الكون في ظلال قاتمة ، وطبيعة لا تحب القيود وان لا بستها وبدت عليها أنها رضيت بها . ولا ريبة انهُ وقد صدم في آماله وحبه بوفاة قرينة روحه وهو في أوائل العقد الرابع من عمره ان امسك عن الزواج ، مخلصاً لذكرى تلك التي أحبها وماتت عذراء لم يعرف قلبها حب انسان غيره ، ولم يكر نؤادها رياء المجتمع ونفاقهُ . وعزم مطران على ان يبقى مخلصاً لذكرى حبيبته مثل من أمثلة الوفاء العجيب ، وهو بعد غير مستغرب عليه ، فهو بعد ان اجتاز دوراً خضع فيه لنزوات الشباب طالما قد اجتاز النقبات وأصبح صخرة من الاخلاق الثابتة قال :

ولم أر شيئاً كالفضيلة ثابتاً ثبت عنه آفات البلى والمعاطب

لا يعرف قلبه الانعطاف حب او هيام ، ولا تعرف أخلاقه اللطف والمصانعة الذين يعرفهما من عاشوا عزاباً بلا زواج

وخلاصة القول ان الخليل شخصية ، فيها لطف وتسامح وكرم اخلاق ، وعفة لسان ، وسمو نفس يمثل فيه نموذج الاخلاق اللبناني الاشم من سكان السهول شرق الخليل . والواقع ان مطران نموذج كبير لهؤلاء تتمثل في صورة قوية من شخصيته خلال القوم وأخلاقهم